على المصطفى صلّى الله عليه وسلّم. إنّ القرآن الكريم أُنْزِل على النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم لينذر عليه الصّلاة والسّلام به من كان حيّاً في هذه الحياة الأولى وأثبت أنّه حيٌّ بالإيمان وعمل الصّالحات، وبذلك حقّق الهدف الّذى خلقه الله تعالى من أجله، وهو إفراده عزّ وجلّ بالعبادة. وواضحٌ أنّ الحياة هنا معنويّة. أمّا الميّت في هذه الحياة الأولى معنوياً، فإنّه الكافر الّذى أشرك مع الله تعالى سواه، وبذلك لم يحقّق الهدف الّذى خلقه الله تعالى من أجله، وهو إفراد الله تعالى بالعبادة. إنّ الكافر بمثابة الميّت ساكن القبر على الحقيقة. وهؤلاء الكافرون يحقّ عليهم القول بدخول جهنّم وملئها بهم وبسائر كافرى الإنس والجنّ.

وفي الآيةالكريمة بلاغةٌ بالحذف. وقد دلّ المذكور على المحذوف. إنّ النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم ينذر النّاس بالقرآن الكريم. ويكون من النّاس أحياء والمراد بهم المؤمنون، وأموات والمراد بهم الكافرون. وإذا كان القول قد حقّ على الكافرين بدخول النّار، فقد حقّ القول في المقابل على المؤمنين بدخول الجنّة. لقد دلّ اللّفظ المذكور عن المؤمن : ﴿حيّاً﴾ على اللّفظ المحذوف عن الكافر: «ميتا» كما دلّ القول المذكور عن الكافرين : ﴿ويحقّ القول على الكافرين﴾ على القول المحذوف عن المؤمنين : «ويحقّ القول بدخول الجنّة على المؤمنين».

ما أبلغ الذكر والحذف، وما أعدل القسمة بين الفريقين.

# (٤)

# « إصرار الكافرين على الإعراض عن آيات الله تعالى وعقابهم، وتسلية النّبيّ صلّي الله عليه وسلّم »

## الآيات (٧١ ـ ٧٦)

أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَمَشَارِبُ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾

فمنها ركوبهم : فمنها ما يركبون كالإبل يسافرون عليها. يقال : هذه دابّةٌ ركوب(١) والرَّكوب : المركوب(٢) واجتمع القرّاء على فتح الرّاء لأنّ المعنى : فمنها ما يركبون(٣).

ومشارب : جمع مَشْرَب، بفتح الرّاء بمعنى شُرْب أو موضعه(٤) والمشرَب : الماء الّذى يُشْرَب. والمشرَب : الوجه الّذى يُشْرَب منه، ويكون موضعاً، ويكون مصدراً(٥) ومشارب : يشربون ألبانها(٦).

أعمي الكافرون بصراً وبصيرةً ولم يروا أنّا خلقنا لهم ممّا عملت أيدينا وانفردت به قدرتنا أنعاماً من إبل وبقر فهم لهامالكون وفيها متصرّفون. وذلّلناها لهم فمنها ما يركبون كالإبل، ومنها يأكلون، وهي الإبل والبقر والغنم، ولهم فيها منافع مختلفة، ومنها يشربون اللّبن. هلاّ شكر الكافرون لله تعالى نعمه العظية وآلاءه الجسيمة عليهم فأفردوه عزّ وجلّ بالعبادة وحده دون سواه.

(١) تفسير الطّبرى ٢٣/ ٣٠.

(٢) لسان العرب : «ركب».

(٣) معانى القرآن للفرّاء ٢/ ٣٨ ولسان العرب : «ركب».

(٤) انظر الجلالين ولسان العرب : «شرب» وجاء في البحر المحيط ٧/ ٣٤٧ : «والمشارب جمع مشرب وهو إمّا مصدر أي شُرْب أو موضع الشّرب».

(٥) لسان العرب : «شرب».

(٦) تفسير الطّبرى ٢٣/ ٢٠.

ويلاحظ أنّ الآيات الكريمات الثّلاث تتعلّق بالأنعام ومنها الإبل الّتى تنفرد بالقياس إلى البقر والغنم بأنّها تتّخذ ركوباً. والمعروف أنّ الإبل أهم أنواع الأنعام الثّلاثة. وكأنّ الحديث عن الأنعام هنا من زاوية اتّخاذها ركوباً في المقام الأوّل. وإنّ السّياق ليومىء إلى هذا المعنى. إنّه بعد امتلاك الأنعام يُتّخذ بعضها ركوباً. وبذلك يكون الحديث عن الأنعام الّتى يُتّخذ بعضها ركوباً امتداداً لحديث السّورة الكريمة من قبل عن آية الحمل فوق الماء في السّفن.

وهكذا تتلاحق المعاني وتترابط الآيات الكريمات معنوياً رغم تباعدها عضوياً.

ومن الآيات الكريمات الّتى تحدّثت كثيراً عن المنافع من الأنعام قول الحقّ جلّ وعلا في سورة النّحل(١) : ﴿والأنعام خلقها لكم فيها دفءٌ ومنافع ومنها تأكلون. ولكم فيها جَمالٌ حين تُريحون وحين تَسْرَحون. وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلاّ بشقّ الأنفس. إنّ ربّكم لرءوف رحيم﴾ وقولُ الحقّ جلّ وعلا(٢) : ﴿والله جعل لكم من بيوتكم سكناً وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتاً تستخفّونها يوم ظعنكم ويوم إقامتكم ومِنْ أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثاً ومتاعاً إلى حين﴾.

---

(١) الآيات ٥-٧.

(٢) سورة النّحل ٨٠.

وَٱتَّخَذُوا۟
مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ
نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴿٧٥﴾ فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ
إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٦﴾

واتّخذ الكافرون عموماً، كفّار مكّة خصوصاً، من دون الله تعالى آلهةً زائفةً يعبدونها، لعلّهم ينصرونهم ويقرّبونهم إلى الله تعالى زُلْفى حسب زعمهم. لا تستطيع تلك الآلهة المزعومة نصرهم في الأولى والآخرة. وتلك الآلهة الّتى أرادوها جنداً لهم وعزّاً، ستكون ضداً عليهم وذلاً، وهم جميعاً مُحْضَرون للعذاب.

فلا يحزنك أيّها الرّسول الكريم والنّبيّ العظيم قولهم إنّك لست مرسلاً، وقولهم إنّه ليس ثمّة بعثٌ ولا نشور، وليس ثمّة ثوابٌ ولا عقاب. إنّا نعلم جيّداً ما يقولون، وسوف نحاسبهم عليه ونعاقبهم يوم القيامة.

# (٥)

# « الله تعالى قادرٌ على إعادة خلق الإنسان والسّماوات والأرض »

# الآيات (٧٧ ـ ٨٣)

أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا
خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا
مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾
قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ
﴿٧٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم
مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾

سبب النّزول.

رُوي أنّ أبيّ بن خلف الجُمَحيّ جاء إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بعظم حائل ففتّه بين يديه وقال : يا محمّد يبعث الله هذا بعد ما أرمّ[1] فقال : نعم. يبعث الله هذا ويميتك ثمّ يحييك ثمّ يدخلك نار جهنّم. فنزلت هذه الآيات[2].

خصيم : ذو خصومة لربّه يخاصمه فيما قال له ربّه إنيّ فاعل. وذلك إخبار الله إيّاه أنّه محيي خلقه بعد مماتهم فيقول : من يحيي هذه العظام وهي رميم، إنكاراً منه لقدرة الله على إحيائها[3].

مبين : يبين لمن سمع خصومته وقيله ذلك أنّه مخاصمٌ ربّه الّذى خلقه[4].

وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه : ومثّل لنا شَبَهاً قوله : ﴿من يحيي العظام

---

(١) أرمّ : بلي.

(٢) انظر أسباب النّزول ٤٢٣ وتفسير الطّبرى ٢٣/ ٢١ وتفسير ابن كثير ٦/ ٥٧٩ والبحر المحيط ٧/ ٣٤٨.

(٣) تفسير الطّبرى ٢٣/ ٢١.

(٤) تفسير الطّبرى ٢٣/ ٢١.

وهي رميم﴾ إذا كان لا يقدر على إحياء ذلك أحد. يقول : فجعلنا كمن لا يقدر على إحياء ذلك من الخلق.. ونسي خلقنا إيّاه كيف خلقناه وأنّه لم يكن إلاّ نطفة فجعلناها خلقاً سوياً ناطقا(١).

رميم : بالية(٢) والرّميم اسمٌ لما بلي من العظام غير صفة(٣).

الّذى جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً : الشّجر جمع شجرة(٤) ذكر ما هو أغرب من خلق الإنسان من النّطفة، وهو إبراز الشّيء من ضدّه. وذلك أبدع شيء، وهو اقتداح النّار من الشيء الأخضر. ألا ترى أنّ الماء يطفىء النّار ومع ذلك خرجت ممّا هو مشتملٌ على الماء(٥) والأعراب تورى النّار من الشّجر الأخضر، وأكثرها من المرخ والعفار(٦) وفى أمثالهم : في كلّ شجر نار، واستمجد المرخ والعفار. واستمجد المرخ والعفار، أي استكثرا وأخذا من النّار ما هو حسبهما. شبّهما بمن يكثر العطاء طلباً للمجد، لأنّهما يسرعان الوَرْي(٧) ويضرب المثل في تفضيل بعض الشّيء على بعض. ويقال : ليس في الشّجر كلّه أورى زناداً من المَرخ. وربّما كان المَرْخ مجتمعاً ملتّفاً وهبّت الرّيح فحكّ بعضه بعضاً فأورى فاحترق الوادي كلّه. ولم نر ذلك في سائر الشجر(٨) والمرخ ذكر والعفار أنثى. يقطع الرّجل منهما غصنين مثل السّواكين وهما أخضران يقطر منهما

---

(١) تفسير الطّبرى ٢٣/ ٢١.

(٢) الجلالين.

(٣) الكشّاف ٢/ ٥٩٥.

(٤) تفسير الطّبرى ٢٣/ ٢٢.

(٥) البحر المحيط ٧/ ٣٤٨.

(٦) البحر المحيط ٧/ ٥٩٥.

(٧) مجمع الأمثال للميداني ٢/ ٧٤ مَثَل رقم ٢٧٥٢ تحقيق محمّد محي الدّين عبدالحميد الطبعة الثّانية ١٣٧٩هـ - ١٩٥٩م.

(٨) مجمع الأمثال للميداني ٢/ ٧٤.

الماء. ويسحق المرخ وهو ذكر والعفار وهي أنثى فتنقدح النّار بإذن الله عزّ وجل[1] والزّند الأعلى يكون من العفار، والأسفل من المرخ[2] وهذا دالٌّ على القدرة على البعث، فإنّه جمع فيه بين الماء والنّار والخشب. فلا الماء يطفىء النّار ولا النّار تحرق الخشب[3].

أعمى ذلك الإنسان الكافر المنكر للبعث ولم ير بعين البصر والبصيرة أنّا خلقناه من نطفةٍ من ماءٍ مهينٍ فإذا هو ذو خصومةٍ لربّه جلّ وعلا يوظّف ما أكرمه الله تعالى به من قدرةٍ على التّعبير والبيان في حرب الله تعالى ورسوله صلّى الله عليه وسلّم، بدلاً من أن يوظّف هذه النّعمة في الدّفاع عن حرمات الله تعالى والدّعوة إلى سبيل ربّه عزّ وجلّ.

ويلاحظ أنّ الحديث هنا يثير في الكافر المعاند إنسانيّته وينبّهه لنعم الله تعالى عليه الّتي لا تكاد تُحْصى. والحقيقة أنّا أمام درسٍ قرآني بليغ في أدب الحوار مع الخصوم.

والحديث هنا عن الإنسان من زاوية خلق الله تعالى له. وسبق أن كان حديثٌ عن خلق الله تعالى الأنعام الّتي تُتّخذ مركوباً، وكان قبل ذلك حديث عن خلق الله تعالى السّفن للنّاس على غرار سفينة نوحٍ عليه السّلام. إنّ ثمّة تحوّلاً من سفينة البحر إلى سفينة البر وهي النّاقة أو الجمل الّذي يُرْكب ويُحْمَل عليه من بين الأنعام. وإنّ ثمّة تدرّجاً وتحوّلاً من جنس الحيوان في هيئة الأنعام إلى جنس الإنسان. وسوف يكون هنالك تحوّل في نهاية السّورة إلى عمليّة خلق السّماوات والأرض، وخلقهما بنصّ القرآن الكريم أكبر من خلق النّاس.

وإنّ جنس الإنسان الكافر المنكر للبعث ضرب لله تعالى مثلاً ونسي خلقه وذلك حينما أتى بعظمٍ رميم فتّته واستبعد أن يعيد الله تعالى الحياة إلى ذلك العظم. إنّ المخلوقين يعجزون عن إعادة الحياة إلى ذلك العظم، وكأنّ ذلك الكافر

---

(١) البحر المحيط ٧/ ٣٤٨.

(٢) مجمع الأمثال للميداني ٢/ ٧٥.

(٣) الجلالين.

المنكر للبعث بضربه المثل يجعل الله تعالى شبيهاً بالمخلوقين. وما أبلغ الجملة المعترضة: ﴿ونسي خلقه﴾ في وضع الدّليل النّابع من المنكر المعترض ذاته. إنّ خلق الله تعالى له يدحض إنكاره البعث الّذى أعلنه وهو يفتّت العظم البالى ويفحمه. إنّ الله سبحانه وتعالى خلقه ولم يك شيئاً وجعل العظم قوام جسده، فلماذا نظر إلى العظام وهي رميم، ولم ينظر إلى هذه العظام ذاتها الّتى أنشأها الله تعالى إنشاءً.

لقد قدّم السّياق الجواب الشّافي والرّدّ الكافي على ذلك الكافر المعاند المعترض. قل يا محمّد وقل أيها المؤمن إن الّذى أنشأ العظام أوّل مرّةً هو الّذى يحييها يوم القيامة. إنه الله سبحانه وتعالى بكلّ خلق عليم. ومعروفٌ أن إعادة العمل بالقياس إلى البشر أيسر من إبداعه وإيجاده من العدم. نقول هذا بلغتنا نحن البشر. وإنّ هذا الّذى يصحّ في حقّنا نحن العباد لا يريد الكافرون المعاندون أن يعترفوا به في حقّ ربّ العباد. ونبادر إلى القول بأنّ الأعمال كلّها سواءٌ في حقّ الذّات العليّة.

ويلاحظ أنّ الحديث عن عمليّة خلق الله تعالى للموجودات يتكرّر في هذا الموضع من السّورة وفي الموضع الأخير من السّورة عموماً بشكلٍ ملحوظ.

ولمّا كان الكافر المعاند قد نظر إلى نهاية العظام وقد غدت رميماً، وكان المفروض فيه أن ينظر إليها من الجهة المخالفة تماماً، وهي إيجاد العظام من العدم، فقد ضرب السّياق الدّليل على القدرة المطلقة للذّات العليّة في فعل ما يريد وخلق ما يختار بالحديث عن شيئين مختلفين، ولكنهما منسجمان ومتناغمان، ويتحقّق النّفع منهما رغم الاختلاف في الطّبيعة. إنّ هذا الدّليل يتمثّل في قدرة الحقّ جلّ وعلا أن يجعل لنا نحن البشر من العود الأخضر الّذى يقطر ماءً ناراً مشتعلةً متأجّجة. وها نحن أولاء نوقد النّار ـ مثلا ـ من العودين الأخضرين اللّذين يقطران ماءً بحجم السّواك من المرخ وهو ذكر والعفار وهي أنثى. ومن احتكاكهما تتولّد النّار المتأجّجة الّتى تخالف الماء تماماً في الطّبيعة. إنّ الله سبحانه وتعالى الّذى أوجد النّار من العودين الأخضرين اللّذين يقطران ماءً قادرٌ على إعادة الحياة إلى

العظام الّتى غدت رميماً.

أَوَلَيْسَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ
بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّٰقُ الْعَلِيمُ ﴿٨١﴾
إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾
فَسُبْحَٰنَ الَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾

فسبحان الّذى بيده ملكوت كلّ شيء : الملك والملكوت واحدٌ في المعنى، كرحْمة ورحَموت، ورهبة ورهَبوت، وجَبْر وجبَروت(١) وجاء في مفردات الرّاغب الأصفهاني(٢) : «والمَلكوت مختصٌ بِملك الله تعالى، وهو مصدر مَلَكَ، أُدْخِلَت فيه التّاء نحو : رَحَموت ورهَبوت».

إذا كان إيجاد الله تعالى النّار من الشّجر الأخضر الّذى يقطر ماءً دليلاً غير مباشر على قدرة الله تعالى على بعث الخلائق أحياء مرّة أخرى يوم القيامة، فإنّ الآيات الكريمات الثّلاث الأخيرات من السّورة الكريمة دليلٌ مباشرٌ على هذه القدرة، الّتي لا يعجزها شيءٌ في الأرض ولا في السّماء.

أوليس الّذى خلق السّماوات والأرض وأبدعهما وأوجدهما من العدم بقادرٍ على أن يخلق يوم القيامة مثلهم. وإنّما كان التّعبير بضمير العقلاء تنبيهاً على اشتمال السّماوات والأرض على العقلاء من المخلوقات. بلى هو قادرٌ على ذلك، وهو عزّ وجلّ الخلاّق لكلّ ما يريد خلقه، العليم الّذى أحاط بكلّ شيءٍ علماً.

إنّما أمر الله تعالي إذا أراد شيئاًأن يقول له فقط : ﴿كن فيكون﴾ إنّ ربّ

---

(١) تفسير ابن كثير ٦/ ٥٨٢.

(٢) «ملك» ٢/ ٦١١.

العزّة والجلال العزيز الرّحيم يقرّب لنا قدرته المطلقة فيكلّمنا نحن البشر، المحدودي القدرة، المقهوري الإرادة، باللّغة القاصرة العاجزة الّتى نفهمها نحن البشر. قال قتادة : ليس من كلام العرب شيءٌ هو أخفّ من ذلك ولا أهون، فأمر الله كذلك(١).

فتنزيهاً لله تعالى الّذى بيده ملكوت كلّ شيء، يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد، لا رادّ لقضائه، ولا معقّب لحكمه، وإليه يرجع النّاس يوم القيامة، فيحاسبهم ويجازيهم، يثيبهم بفضله، ويعاقبهم بعدله، لا ربّ غيره، ولا معبود بحقٍّ سواه، العزيز في ملكه ، الرّحيم بعباده، سبحانه.

---

(١) تفسير الطّبرى ٢٣/ ٢٢.

** تعقيب :

نودّ أن نشير في هيئة نقاط إلى بعض الأمور المتعلّقة بالسّورة الكريمة.

١ ـ سورة يس من المكّيّ من القرآن الّذى نـزل قبل هجرة المصطفى ﷺ إلى المدينة المنورة(١).

٢ ـ لسورة يس بعض الفضائل الّتى أومأت إليها بعض الأحاديث والآثار. ومن ذلك الحديث الّذى رواه الإمام أحمد عن معقل بن يسار رضى الله عنه أنّ رسول الله ﷺ قال: البقرة سنام القرآن وذروته، نزل مع كلّ آيةٍ منها ثمانون ملكاً. واستخرجت : ﴿الله لا إله إلاّ هو الحيّ القيّوم﴾ من تحت العرش فوصلت بها. أو : فوصلت بسورة البقرة. ويس قلب القرآن. لا يقرؤها رجلٌ يريد الله والدّار الآخرة إلاّ غفر له. واقرءوها على موتاكم(٢).

وعن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ: «إنّ لكلّ شيءٍ قلباً، وقلب القرآن يس»(٣).

وعن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : من قرأ يس في ليلة أصبح مغفوراً له. ومن قرأ : ﴿حم﴾ الّتى يُذْكَر فيها الدُّخان أصبح مغفوراً لهً. إسناد جيّد(٤).

٣ ـ عدد آيات السّورة الكريمة ثلاثٌ وثمانون آية، وعدد كلماتها سبعمائة وسبعٌ وعشرون كلمة، وعدد حروفها ثلاثة آلاف حرف(٥).

٤ ـ تبيّن أنّ السّورة الكريمة تشتمل على ستّة موضوعات أو ستّ قضايا هي الرّسول الكريم، والقرآن الحكيم، والمؤمنون، والكافرون، والبعث بعد الموت. وقضيّة البعث هي المحور الّذى تدور حوله السّورة الكريمة ولذلك كثر الحديث في

---

(١) الإتقان ١/ ٤٣.

(٢) تفسير ابن كثير ٦/ ٥٤٧.

(٣) تفسير ابن كثير ٦/ ٥٤٧.

(٤) تفسير ابن كثير ٦/ ٥٤٧.

(٥) تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان للنّيسابورى ٢٣/ ٢ مطبوع بهامش تفسير الطّبرى.

هذه القضيّة. ورغبةً في حثّ الكافرين على الإيمان بالبعث تكون في السّورة الكريمة وسيلتان من أجل تحقيق هذه الغاية. الوسيلة الأولى ضرب المثل بالقرية الظّالمة الّتي دمّر الله تعالى أهلها تدميراً بسبب إصرارهم على الكفر وقتلهم الرّجل المؤمن الّذي دعاهم إلى الله تعالى. وتوشك أن تكون نهاية كافري مكّة مماثلةً إن لم يتوبوا ويؤمنوا ويعملوا صالحا. والوسيلة الأخرى لفت الانتباه إلى عدد من الآيات الدّالّة على القدرة المطلقة للذّات العليّة، وهي آيات المكان والزّمان والحمل على الماء. ويلحق بالآية الأخيرة خلق الأنعام وأهمّها الإبل، وأهم وظائف الإبل رُكوبها والحمل عليها ومن ثمّ لقّبت سفينة الصّحراء. وكأنّ العَلاقة بين السّفن والإبل الحمل على السّفن في البحر، والحمل على الجِمال في البّر.

٥ ـ أمكن تقسيم السّورة الكريمة إلى ستّة أقسام. وقد اشتمل القسم الأوّل على خمسٍ من قضايا السّورة الكريمة السّتّ، هي الرّسول الكريم، والقرآن الحكيم، والمؤمنون، والكافرون، وقضيّة البعث بعد الموت. ثمّ كان ضرب المثل لكفار مكّة بالقرية الظّالم أهلها الّذين كذّبوا رسل الله تعالى الثّلاثة إليهم، الواحد تلو الآخر، وبلغ بهم درك الشّقاء أن قتلوا الرّجل المؤمن الّذي جاء من أقصى المدينة يسعى لينصحهم وينصر رسل الله تعالى. لقد ضرب هذا الرّجل المؤمن أبلغ المثل للدّاعية المسلم الصّادق النّصح، الطّيّب القلب، السّليم الصّدر، الواسع الإدراك، الحكيم، الحليم العليم. وكما كان صادق النّصح في الأولى كان صادق النّصح في الآخرة، فقد جاء عنه وعلى لسانه قول الحقّ جلّ وعلا[1] : ﴿قيل ادخل الجنّة قال يا ليت قومى يعلمون. بما غفر لي ربّى وجعلنى من المكرمين﴾. وكما كان ثواب هذا المؤمن عظيماً في الآخرة، كان عذاب الكافرين الّذين قتلوه عظيماً في الأولى والآخرة. لقد أُهْلك القوم بصيحة واحدة من جبريل عليه السّلام. إنّ هذه العاقبة الوخيمة ستكون من نصيب الكافرين أمثال أهل القرية الكافرين الصّادّين عن سبيل الله تعالى. ويأتى كفّار مكّة على رأس القائمة.

٦ ـ يجيء في أثناء الحديث عن أهل القرية الّتي أهلكها الله تعالى الإشارة

---

(١) سورة يس ٢٦ و ٢٧.

إلى تشاؤم أهل القرية الكافرين من وجود رسل الله تعالى الثّلاثة إليهم بين ظهرانَيْهم، وردّ الرّسل عليهم مع استخدام أسلوب المشاكلة أو مراعاة النّظير. إنّ الكافرين يريدون من التّطيّر التّشاؤمَ من رسل الله تعالى إليهم. وإنّ المرسلين يريدون باستعمال لفظ الطّائر المشاكلة ومراعاة النّظير، بحيث يفهم الكافرون التّطيّر بمعناهم الجاهلي، في حين يريد رسل الله تعالى المعنى الإسلاميّ وهو أنّ ما حلّ بالقوم من قحطٍ ومرضٍ وبلاءٍ كان بسبب إعراضهم عن رسل الله تعالى وكفرهم وصدّهم عن سبيل الله تعالى وليس بسبب وجود الرّسل معهم. قال تعالى[1]: ﴿قالوا إنّا تطيّرنا بكم لئن لم تنتهوا لنرجمنّكم وليمسّنّكم منّا عذابٌ أليم. قالوا طائركم معكم أئن ذكّرتم بل أنتم قومٌ مسرفون﴾.

ويلاحظ أن الحديث عن التّطيّر في سورة يس هو الحديث الثالث والأخير في القرآن الكريم. أما الموضعان الآخران ففي الآية الكريمة الحادية والثّلاثين بعد المائة من سورة الأعراف، والآية الكريمة السابعة والأربعين من سورة النّمل. وهذا المستوى من الدّلالة يبيّن المعنى الإسلاميّ المقصود في القرآن الكريم من الحديث عن التّطيّر رداً على المعنى الجاهليّ للتّطيّر كما يفهمه الكافرون. أمّا استعمال لفظة طائر بمعنى كتاب الأعمال في الآية الكريمة الثّالثة عشرة من سورة الإسراء، فإنّ هذا المستوى الرّفيع من الدّلالة ما كانت اللّغة العربيّة لتقترب من آفاقه لولا هذا الكتاب العزيز الّذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيلٌ من حكيمٍ حميد.

٧ ـ الحديث عن آيات الله تعالى الدّالّة على قدرته المطلقة عزّ وجلّ يرضى كلّ عقلٍ بفصوص حكمه ويشبع كلّ نفسٍ بلذيذ نظمه، وجميل شكله. إنّ الآيات الثّلاث ترتّب وفق قدرة الّذين يعنيهم الأمر على إدراك المعاني والمرامى. إنّ الحديث عن آية المكان يتقدّم، ثمّ يأتي الحديث عن آية الزّمان، ثمّ يأتى الحديث عن وجوب القيام بالشكر لله تعالى الذى حملهم في البحر على السّفن، وذلك بإفراد لله تعالى بالعبادة.

وإنّ الحديث عن كل من الآيات الثّلاث يأتى في أربع اياتٍ كريمات، ترضى

---

(١) سورة يس ١٨ و ١٩.

كلّ عقلٍ بفصوص حكمها، وتشبع كلّ نفسٍ بظاهرة تلاؤم أصواتها.

ويلحق بآية الحمل فوق الماء آية خلق الأنعام وفي مقدّمتها الإبل الّتى تحمل المخاطَبين في البرّ كما تحملهم السّفن في البحر.

٨ ـ من أهمّ الظّواهر الأسلوبيّة في سورة يس ظاهرة البناء الهرميّ للمعانى الّتى تتجلّى بوضوحٍ شديدٍ في الآيات الكريمات من التّاسعة حتّى الحادية عشرة. قال تعالى: ﴿إنّا جعلنا في أعناقهم أغلالاً فهي إلي الأذقان فهم مقمحون. وجعلنا من بين أيديهم سدّاً ومن خلفهم سدّاً فأغشيناهم فهم لا يبصرون. وسواءٌ عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون﴾ إنّ حبّات عقد المعانى النّضيد يجب أن تكون في التّرتيب الّذى جاء في الآية الكريمة. وإنّ ظاهرة البناء الهرميّ للمعانى فتن بها أمراء البيان في اللّغة العربيّة، وعلى رأسهم أمير البيان العربيّ أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ. إنّ ظاهرة البناء الهرميّ للمعانى أهمّ ظاهرةٍ أسلوبيّة تميّز أسلوب الجاحظ. وقد اقتبس الجاحظ هذه الظّاهرة من القرآن الكريم ووظّفها في حدود طاقته البشريّة المحدودة.

٩ ـ جملة: ﴿وكلٌّ في فلكٍ يسبحون﴾ الّتى ختمت بها الآيات الكريمات الّتى تتحدّث عن آية الزّمان رشّحت لتحوّل الحديث إلى آية الحمل فوق الماء على السّفن.

١٠ ـ أشارت الآية الكريمة الخامسة إلى صفتي العزّة والرّحمة من صفات الحقّ جلّ وعلا الواحد الأحد. قال تعالى: ﴿تنزيل العزيز الرّحيم﴾ وصفتا العزّة والرّحمة تصبغان السّورة الكريمة بلونيهما. ومعروفٌ أنّ لفظ: ﴿الرّحمن﴾ وهو عظيم صفات الله تعالى، جاء أربع مرّات في السّورة الكريمة، في الآيات الكريمات ١١و ١٥و٢٣و٥٢. واللّطيف في الأمر أنّ هذا اللّفظ الكريم يجيء على لسان الكافرين مرّتين اثنتين، مرّةً في الحياة الأولى في الآية الكريمة الخامسة عشرة. ومرّةً في الحياة الأخرى في الآية الكريمة الثانية والخمسين.

١١ ـ قضيّة البعث بعد الموت هي المحور الّذى تدور حوله السّورة الكريمة؛ ولذلك كثر حديث السّورة الكريمة المؤلّفة من ثلاثٍ وثمانين آيةً كريمةً عن هذه

القضيّة. ويصحّ أن يقال إنّ حديث السّورة الكريمة في قضيّة البعث بعد الموت جاء في الآيات الكريمات التّاليات، ٦, ٧, ١٠, ١١, ١٢, ٢٢, ٢٣, ٢٦, ٢٧, ٣٢، ٣٣, ٤٥، ٤٨, ٤٩, ٥٠, ٥١، ٥٢, ٥٣, ٥٤, ٥٥, ٥٦، ٥٧, ٥٨، ٥٩، ٦٣, ٦٤، ٦٥، ٦٦، ٧٠, ٧٤, ٧٥, ٧٦ ٧٨, ٧٩, ٨١, ٨٢، ٨٣.

وحينما يكون جوهر دعوة الرّسل العمل في الحياة الدّنيا لحسن الثّواب في الآخرة نستطيع أن نفهم أنّ الرّسل الثّلاثة إلى القرية الظّالم أهلها كان الحثُّ على الإيمان بالبعث هو محور دعوتهم، عليهم صلوات الله تعالى وسلامه أجمعين.

١٢ ـ يبدو أسلوب الاستفهام والنّفي والقَصْر واضحاً في السّورة الكريمة.

١٣ ـ في ضوء ما سبق نستطيع أن نتبيّن وحدة السّورة الموضوعيّة على النّحو التّالي.

تتحدّث الاثنتا عشرة آيةً كريمةً في أوّل السّورة في خمس من قضايا السّورة الكريمة السّتّ. وهذه القضايا الخمس كما تبيّن، الرّسول الكريم، والقرآن الحكيم، والمؤمنون، والكافرون، والبعث بعد الموت. أمّا الموضوع السّادس فهو البراهين والآيات الدّالّة على القدرة المطلقة للذّات العليّة. إنّ السّورة الكريمة تضرب المثل لكفّار مكّة بالقرية الظّالم أهلها الّذين كفروا وصدّوا عن سبيل الله تعالى. لقد كان مصيرهم الإهلاك بسبب كفرهم وصدّهم عن سبيل الله تعالى وقتلهم الرّجل المؤمن الدّاعي إلى الله تعالى. إنّ في ضرب المثل بالقرية الظّالم أهلها تحذيراً لكفّار مكّة وتسليةً للمؤمنين بقيادة المصطفى ﷺ. إنّنا هنا بصدد تسليةٍ غير مباشرة للمصطفى ﷺ، وفي السّورة الكريمة عموماً تسليةٌ مباشرةٌ له عليه الصّلاة والسّلام وغير مباشرة.

ولمّا كان كفّار مكّة مصّرين على كفرهم وعنادهم لفتت السّورة الكريمة انتباههم إلى عددٍ من آيات الله تعالى الدّالة على قدرته المطلقة جلّ وعلا، وفي مقدّمة الآيات آية المكان، وآية الزّمان، وآية الحمل فوق الماء.

ويظلّ كفّار مكّة على كفرهم وعنادهم فتصوّر السّورة الكريمة الأهوال الّتي سيصادفها الكافرون حتّى يزجّ بهم يوم القيامة في نار الجحيم. وفي المقابل هنالك المؤمنون في جنّات النّعيم.

وما أكثر الحديث عن أهوال يوم القيامة ونار الجحيم.

وبشأن الحديث عن الأنواع الأربعة من الأدلّة على القدرة المطلقة للذّات العليّة في الآيات الكريمات (٦٥-٦٨) يكون الحديث في الآية الكريمة الرّابعة عن النّوع الرّابع الّذى يعيشه الكافرون أو الّذى سوف يعيشونه وهو الضّعف والشّيبة بعد القوّة والشّباب. إنّ الختم على الأفواه كيلا تكذب، واعتراف الأيدي وشهادة الأرجل، والطّمس على الأعين كيلا تبصر الطّريق الموصل إلى الصّراط فكيف بالعبور عليه، ومسخ القوم حجارة، إنّ هذه الأدلّة الثّلاثة لم يشاهدها الكافرون ولكنّهم يشاهدون تجربة الضّعف والشّيبة. إذن فليستدلّ الكافرون المنكرون للبعث على قدرة الله تعالى بما عرفوا من ضعف وشيبة على الّذى لمّا يعرفوا بعد ولم يروا من عذاب الله تعالى لهم في الآخرة والأولى.

وإنّ الاستدلال بالمعلوم على غير المعلوم نتبيّنه مرّةً أخرى في السّورة الكريمة الّتى تشير إلى عجيبة إيجاد الحقّ جلّ وعلا النّار المتأجّجة من العودين الأخضرين اللّذين يقطر منهما الماء.

وحينما أصرّ الكافرون على الإعراض عن الذّكر الحكيم والقرآن المبين كان ثمّة تحولٌ من السّورة الكريمة للحديث عن آية خلق الله تعالى للأنعام من إبلٍ وبقر وغنم. وسبق أن أومأنا إلى العَلاقة بين آية حمل الله تعالى النّاس فوق الماء في السّفن وبين خلق الأنعام الّتى تأتي الإبل على رأسها، ومن أهمّ منافعها انفرادها باتّخاذها مركوباً ووسيلة لحمل الأثقال على ظهورها.

وحينما أصرّ أبيّ بن خلف على ضرب المثل دليلاً على إنكار البعث بالعظم البالي الّذى فتّته كان ثمّة تأكيدٌ للبعث بعد الموت، واستدلالٌ عليها بالنّار الّتى تخرج بإرادة الله تعالى من العودين الأخضرين اللّذين يقطران ماءً. ووراء ذلك كان ثمّة اهتمامٌ بالتّنبيه على قدرة الله تعالى على عمليّة الخلق والإيجاد من العدم. إنّ السّياق إذا كان قد تكلّم من ذي قبل عن خلق الله تعالى الأنعام، ثمّ كان هنالك حديثٌ عن خلق الله تعالى الإنسان مرّة أخرى يوم القيامة، فثمّة تدرّجٌ من الحيوان إلى الإنسان، فإنّ في ختام السّورة تأكيداً لعمليّة التّدرّج هذه إلى الأعلى. إنّ ثمّة

حديثاً عن خلق الله تعالى السّماوات والأرض مرّةً أخرى. إنّ خلق السّماوات والأرض أكبر من خلق الإنسان بنصّ القرآن الكريم. وهكذا يكون ثمّة تدرّجٌ بشأن عمليّة الخلق إلى الأعلى من الأنعام، إلى الإنسان، إلى السّماوات والأرض.

إنّ كلّ هذه الدّلائل على القدرة المطلقة للذّات العليّة رشّحت للقول في نهاية السّورة الكريمة: ﴿أوليس الّذى خلق السّماوات والأرض بقادرٍ على أن يخلق مثلهم. بلى وهو الخلاّق العليم. إنّما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون. فسبحان الّذى بيده ملكوت كلّ شيءٍ وإليه ترجعون﴾ صدق الله العظيم.

وصلّى الله وسلّم على سيّدنا محمّد وعلى آله وصحبه أجمعين والحمد لله ربّ العالمين.

مكة المكرّمة
صبيحة يوم الأربعاء ٣٠ / ٨ / ١٤٢٠هـ
الموافق ٨/ ١١/ ١٩٩٩م

كتبه الفقير الى عفو ربّه
د. حسن محمّد باجودة
أستاذ الدّراسات القرآنيّة البيانيّة
جامعة أم القرى بمكّة المكرّمة

# ثانياً

# سورة الصّافّات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالصَّٰٓفَّٰتِ صَفًّا ﴿١﴾ فَالزَّٰجِرَٰتِ زَجْرًا ﴿٢﴾ فَالتَّٰلِيَٰتِ ذِكْرًا ﴿٣﴾
إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ ﴿٤﴾ رَّبُّ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ
الْمَشَٰرِقِ ﴿٥﴾ إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَآءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ ﴿٦﴾ وَحِفْظًا
مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ﴿٧﴾ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ
مِن كُلِّ جَانِبٍ ﴿٨﴾ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴿٩﴾ إِلَّا مَنْ خَطِفَ
الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴿١٠﴾ فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا
أَم مَّنْ خَلَقْنَآ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ ﴿١١﴾ بَلْ عَجِبْتَ
وَيَسْخَرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا رَأَوْا ءَايَةً يَسْتَسْخِرُونَ
﴿١٤﴾ وَقَالُوٓا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا
أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿١٦﴾ أَوَءَابَآؤُنَا الْأَوَّلُونَ ﴿١٧﴾ قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَٰخِرُونَ
﴿١٨﴾ فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا يَٰوَيْلَنَا هَٰذَا
يَوْمُ الدِّينِ ﴿٢٠﴾ هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢١﴾
۞ احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ
اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ الْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾

مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾ بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴿٢٦﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ
عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٧﴾ قَالُوا إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ ﴿٢٨﴾
قَالُوا بَل لَّمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٢٩﴾ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ ۖ
بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ ﴿٣٠﴾ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا ۖ إِنَّا لَذَائِقُونَ ﴿٣١﴾
فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ ﴿٣٢﴾ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ
﴿٣٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ
لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا
لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ﴿٣٦﴾ بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾ إِنَّكُمْ
لَذَائِقُوا الْعَذَابِ الْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ
﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ أُولَٰئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾
فَوَاكِهُ ۖ وَهُم مُّكْرَمُونَ ﴿٤٢﴾ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٤٣﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ
﴿٤٤﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿٤٥﴾ بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ
﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾ وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ
الطَّرْفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ
بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٥٠﴾ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥١﴾

يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا
لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِى سَوَآءِ
ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّى
لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَتَنَا
ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾
لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ ﴿٦١﴾ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ
ٱلزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ
تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ
﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَءَاكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ
عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾
إِنَّهُمْ أَلْفَوْا ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴿٧٠﴾
وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٧١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم
مُّنذِرِينَ ﴿٧٢﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾
إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٧٤﴾ وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ
ٱلْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾

وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَٰمٌ
عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ
عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٨٢﴾ ۞ وَإِنَّ مِن
شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ إِذْ قَالَ
لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ
﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾
فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ
فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا
بِٱلْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ فَأَقْبَلُوٓا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ
﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ
فِى ٱلْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾
وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ
﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ
يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ
يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾

فَلَمَّآ أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيۡنَٰهُ أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدۡ
صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ
ٱلۡبَلَٰٓؤُاْ ٱلۡمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيۡنَٰهُ بِذِبۡحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِ فِي
ٱلۡأٓخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ
﴿١١٠﴾ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١١١﴾ وَبَشَّرۡنَٰهُ بِإِسۡحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ
ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَٰرَكۡنَا عَلَيۡهِ وَعَلَىٰٓ إِسۡحَٰقَۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا
مُحۡسِنٞ وَظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ مُبِينٞ ﴿١١٣﴾ وَلَقَدۡ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ
وَهَٰرُونَ ﴿١١٤﴾ وَنَجَّيۡنَٰهُمَا وَقَوۡمَهُمَا مِنَ ٱلۡكَرۡبِ ٱلۡعَظِيمِ
﴿١١٥﴾ وَنَصَرۡنَٰهُمۡ فَكَانُواْ هُمُ ٱلۡغَٰلِبِينَ ﴿١١٦﴾ وَءَاتَيۡنَٰهُمَا ٱلۡكِتَٰبَ
ٱلۡمُسۡتَبِينَ ﴿١١٧﴾ وَهَدَيۡنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴿١١٨﴾ وَتَرَكۡنَا
عَلَيۡهِمَا فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ﴿١١٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ
﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّهُمَا مِنۡ
عِبَادِنَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٢٢﴾ وَإِنَّ إِلۡيَاسَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿١٢٣﴾
إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ أَتَدۡعُونَ بَعۡلٗا وَتَذَرُونَ أَحۡسَنَ
ٱلۡخَٰلِقِينَ ﴿١٢٥﴾ ٱللَّهَ رَبَّكُمۡ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾

فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٨﴾
وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٢٩﴾ سَلَامٌ عَلَىٰ إِلْ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ
نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ وَإِنَّ لُوطًا
لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾ إِلَّا عَجُوزًا
فِي الْغَابِرِينَ ﴿١٣٥﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ ﴿١٣٦﴾ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم
مُصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ
الْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ
مِنَ الْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَا أَنَّهُ
كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾
۞ فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً
مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾
فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾ فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ
وَلَهُمُ الْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ
شَاهِدُونَ ﴿١٥٠﴾ أَلَا إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ
اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾

مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ
﴿١٥٦﴾ فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٥٧﴾ وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ
نَسَبًا ۚ وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا
يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٠﴾ فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾
مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ ﴿١٦٢﴾ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ ﴿١٦٣﴾ وَمَا مِنَّا إِلَّا
لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ
﴿١٦٦﴾ وَإِن كَانُوا لَيَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾ لَكُنَّا
عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٩﴾ فَكَفَرُوا بِهِ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿١٧٠﴾ وَلَقَدْ
سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ
جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿١٧٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٤﴾ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ
يُبْصِرُونَ ﴿١٧٥﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ
صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ ﴿١٧٧﴾ وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٨﴾ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ
يُبْصِرُونَ ﴿١٧٩﴾ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾
وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٢﴾

# بين يدي التفسير

# (١)

# « الله تعالى الخالق ، زيّن السّماوات الدّنيا بالكواكب، وحفظها من الشّياطين بالشّهب»

## الآيات (١ - ١٠)

يقسم الحقّ جلّ وعلا بالملائكة الّتى تصفّ نفوسها في العبادة أو أجنحتها في الهواء تنتظر ما تؤمر به، والّتى تزجر السّحب زجراً عنيفاً، أو تسوقها سوقاً لطيفاً، والّتى تتلو الذّكر الحكيم، وتحمل للمصطفَين الأخيار الوحي الكريم، أمّا المقسم عليه فالقول : ﴿إنّ إلهكم لواحد﴾ إن إلهكم أيّها المكيّون وأيّها النّاس المستحقّ أن يعبد هو الله تعالى الواحد الأحد الفرد الصّمد، ربّ السّماوات والأرض وما بينهما، ومدبّر كلّ شيء، وربّ مشارق الشّمس ومغاربها، ومشارق كلّ نجمٍ وكوكب ومغاربها. إنّ الله تعالى الّذى فطر السّماوات والأرض ودبّرهما قد زيّن السّماء الدّنيا القريبة منّا بزينة الكواكب النيّرة، وحفظها حفظاً من كلّ شيطانٍ عاتٍ خبيث. لا يُسْمح لأولئك الشّياطين أن يُصْغوا إلى ملائكة السّماء الّذين لديهم بإذن الله تعالى شيءٌ من الغيب يتكلّمون به بينهم. إنّ الشّياطين الّذين يريدون أن يسترقوا السّمع يُقْذَفون بالشّهب والكواكب المضيئة من كلّ جوانب السّماء، لأجل دحرهم وإبعادهم وطردهم، ولهم عذابٌ دائم. إلاّ من خَطِف الخطفة واسترق الكلمة وألقاها للشّيطان المرَيد تحته قبل أن يثقبه الشّهاب بضوئه، ثمّ إلى الشّيطان الّذى يليه حتّى تصل إلى الكاهن أو السّاحر فيضيف إلى الكلمة الواحدة ألف كَذْبة.

# (٢)

# «الأولياء في الدّنيا من منكرى البعث أعداء في الآخرة»

## (الايات (١١-٣٩)

على الرّغم من الآيات البيّنات الدّالّة على قدرة الله تعالى على البعث كخلق السّماوات والأرض وما بينهما فإنّ كفّار مكة يصرّون على إنكار البعث ولا يستعدّون لما بعد الموت. إنّ الحقّ جلّ وعلا يأمر المصطفى ﷺ أن يسأل كفّار مكة على سبيل التّقرير أو التّوبيخ: أأنتم أشدّ خلقاً أم ما خلقنا من السّماوات والأرض وما بينهما، ومن خلقنا فيهن؟ إنّ مشركي مكّة ومن شاكلهم يعترفون بأنّ خلق السّماوات والأرض أكبر من خلق النّاس، ولكنّهم لا يرتّبون على هذا الاعتراف النّتيجة الصّحيحة وهي الإيمان بالبعث، رغم أنّ لديهم في هذه الحياة الدّنيا الدّليل على البعث، وهو خلق السّماوات والأرض الأكبر من خلقهم من طينٍ لاصقٍ لزج. ويكون منكرو البعث هدف الحديث.

بل عجبت أيّها الرّسول الكريم والنّبيّ العظيم من إنكارهم البعث رغم كلّ هذه الأدلّة وهم في المقابل يستهزئون بك ويسخرون من فكرة البعث. وإذا ذُكّروا حجج الله تعالى ليذّكّروا ويتّعظوا لا يذّكّرون ولا يتّعظون. وإذا رأوا آية دالّةً على قدرة الله تعالى وصِدق محمّد ﷺ يستهزئون ويسخرون. وقالوا متمادين في غيّهم ما هذا الّذى جئتنا به يا محمّد إلاّ سحرٌ يبين لمن تأمّله عن فحواه. أئذا متنا وكنّا تراباً وعظاماً ورفاتاً أئنّا لمبعوثون من قبورنا أحياء! أو آباؤنا الأوّلون مبعوثون وهذا أعجب، لأنّ البلى في حقّهم آكد. قل يا محمّد لقومك منكرى البعث: نعم تُبعثون وأنتم صاغرون. فإنّما هي صيحةٌ واحدةٌ يحيا بها الخلائق بإذن الله تعالى

حينما ينفخ إسرافيل عليه السّلام في الصّور فإذا هم ينظرون ما كانوا يوعدون من بعثٍ ونشور، حسابٍ وجزاء.

وحينما بُعِث الكافرون من قبورهم قالوا يا هلاكنا هذا يوم الحساب والجزاء. ويلاحظ استعمال السّياق صيغة الزّمن الماضى، دليلاً على تحقّق وقوع ذلك مستقبلاً، وكأنّه قد تحقّق فعلا. وتقول ملائكة العذاب للكافرين: هذا يوم الفصل بين الخلائق الذى كنتم في الحياة الدّنيا تكذّبون به. ويقال لملائكة العذاب: اجمعوا الّذين أشركوا وأشباههم وما كانوا يعبدون من دون الله تعالى من آلهة زائفة فقودوهم إلى طريق النّار وبئس القرار، واحبسوهم للحساب إنّهم مسئولّون عن أقوالهم وأفعالهم. مالكم لا تتناصرون اليوم كما كنتم تتناصرون في الحياة الدّنيا على الباطل. بل هم اليوم مستسلمون لقضاء الله تعالى فيهم وعذابه لهم.

وإنّ الأخلاّء في الدّنيا إذا كانوا لا يتناصرون في الآخرة فإنّهم يتخاصمون. لقد أقبل التّابعون على المتبوعين والضّالّون على المضلّين يتلاومون. قالوا إنّكم كنتم في الحياة الدّنيا تأتوننا من مأمننا، من الجهة الّتى كنّا نأمنكم منها. قال المتبوعون بل لم تكونوا مؤمنين أصلاً فكيف تلومونا على تقصيركم في جنب الله تعالى. وما كان لنا عليكم من سلطانٍ ولا قوّة. بل كنتم بِشِرْككم طاغين معتدين على حقّ الله تعالى بإفراده عزّ وجلّ وعلا بالعبادة. لقد حقّ علينا قول ربّنا بوجوب العذاب علينا، وملء جهنّم بنا وبأمثالنا. وها نحن أولاء نذوق العذاب. إنّا ثبّتناكم على الغَواية إنّا كنّا غاوين وضالّين مثلكم.

إنّهم جميعاً يوم القيامة في العذاب مشتركون. إنّا كهذا الفعل نفعل بالمجرمين. إنّهم كانوا إذا قيل لهم لا إله إلاّ الله يستكبرون عن توحيد الله تعالى، ويستنكفون عن عبادته، ويقولون أئنّا لتاركو آلهتنا من الأصنام والأوثان، لأجل محمّد الشّاعر المجنون، الّذى يهذى بالشعر، ويزعم أنّه كلام الله تعالى.

بل جاء محمّد ﷺ بالحقّ من الله تعالى، بالقرآن الكريم، وصدّق المرسلين أجمعين الّذين بعثهم الله تعالى بدين التوحيد.

إنّكم أيها المنكرون للبعث لذائقو عذاب يوم القيامة الأليم. وأنتم ما تنالون

إلاّ جزاء ما كنتم تعملون، إن خيراً فخير، وإن شراً فشرّ.

وإذا كان منكرو البعث قد ذاقوا العذاب الأليم، فإنّ المؤمنين قد دخلوا جنّات النّعيم. وها هو ذا السّياق يتحوّل إلى الحديث عن الفريقين مبتدئاً بعباد الله تعالى المخلصين.

## (٣)

## «ثواب العاملين ليوم القيامة، وعذاب المنكرين للبعث»

## الآيات (٤٠-٧٤)

استثنى السّياق من العذاب الأليم عباد الله تعالى المصطفين الأخيار الّذين أخلصوا دينهم لله تعالى. إنّ لهؤلاء رزقاً معلوماً بكرةً وعشيّا. ويُرْمَز لذلك الرّزق بالفواكه الكثيرة الأنواع. والفواكه من التّفكّه بمعنى التّنعّم والتّلذّذ، ووجودها دليلٌ على وجود ما يسبقها من طعامٍ وشراب أساسين. وهم يكرمهم الله تعالى غاية الإكرام في جنّات النّعيم. ويجلسون متقابلين على سررٍ مرفوعة، فلا يرى بعضهم قفا الآخرين. ويطوف عليهم ولدانٌ مخلّدون بكأسٍ مترعةٍ من نهر خمر، بيضاء اللّون، لذيذة الطّعم للشّاربين، وليس فيها ما يغتال صحّةً الجسد كصداع الرّأس، ولا تغطّى العقل ولا تذهب به، فلا يسكر شاربها ولا يهذى، ولكن يعلم ما يقول. وبذلك تطيب الخمر شكلاً ومعنىً، بخلاف خمر الدّنيا الّتى يقترن بها الكثير من الآفات الحسّيّة والمعنويّة.

ويتمّ نعيم أهل الجنّة بالزّوجات اللاتى طبن كذلك شكلاً ومعنى. إنّهنّ الغاية في الجمال الّذى رُمِزَ إليه بالعين النّجلاء، والبيضة المصونة. وإنّهنّ الغاية في نقاء السّريرة الّتى رُمز لها بكونهنّ قاصرات الطّرف على أزواجهنّ، حبّاً لهم ورضاً بهم، وبكونهنّ كالبيض المكنون المستور بريش الطّائر.

إنّ العين الواسعة النّجلاء دليلٌ على جمال بقيّة الأعضاء وإنّ صفاء لون البيض المستور بريش الطّائر دليلٌ على جمال لون البشرة. وبذلك تكون الزّوجة في الجنّة الغاية في جمال الشّكل.

وإنّ قَصْرَ الزّوجة في الجنّة طرفها على زوجها ووَصْفَها بأنّها كالبيضة المستورة بريش الطّائر، المصونة من الرّيح والغبار، دليلٌ على نقاء الباطن. وبذلك تكون الزّوجة في الجنّة الغاية في جمال الباطن.

وهكذا تجمع الزّوجة في الجنّة بين الغايتين من جمال الظّاهر والباطن.

وثمّة فُسْحَةٌ للحديث والسّمر. وفي إحدى مناسبات اللّقاء والحوار، أقبل فريقٌ من أصحاب الجنّة يسأل بعضهم بعضاً عن أمور الدّنيا. قال واحدٌ منهم إنّي كان لي صاحبٌ منكرٌ للبعث يقول لي على جهة التّوبيخ والإنكار أإنّك لمن المصدّقين بيوم القيامة! أئذا متنا وكانت أجسادنا تراباً وعظاماً أئنّا لمحاسبون فمجازون! استمرّ هذا الواحد مخاطباً أصحابه في الجنّة: هل أنتم مطلّون فناظرون من إحدى كوى الجنّة إلى النّار. وفعلاً هو أشرف ونظر إلى النّار فأراه الله تعالى صاحبه المنكر للبعث في وسط نار جهنّم. قال له: والله إنّك بكلامك المعسول كدت توقعني معك في الهلاك بإنكار البعث وعدم الاستعداد ليوم القيامة بعمل الصّالحات. ولولا نعمة ربّي عزّ وجلّ الّذي ثبّتني على المحجّة البيضاء لكنت معك من المحضرين في العذاب.

وممّا تذكّره المؤمنون في الجنّة من الأمور المرغوب عنها عادةً في الدّنيا، الموتُ والعذاب أو الألم. إنّ الجنّة ليس فيها شيءٌ من منغّصات الدّنيا. وإنّ أصحاب الجنّة الّذين استبدّ بهم الفرح والسّرور ليتلذّذون بمثل هذا القول: ﴿أفما نحن بميّتين. إلاّ موتتنا الأولى وما نحن بمعذّبين. إنّ هذا لهو الفوز العظيم﴾.

وإنّ الحقّ جلّ وعلا ليحثّ عباده على الحرص بالأخذ من ذلك الفوز العظيم بالنّصيب الأوفر بعمل الصالحات واستباق الخيرات. قال تعالى: ﴿لمثل هذا فليعمل العاملون﴾.

وبقصد التّحذير من المصير السّيىء لمنكرى البعث ومرتكبى السّيّئات يطرح

السّياق سؤالاً تقريرياً يتّفق العقلاء على جوابه الّذى ليس ثمّة جوابٌ آخر عليه. أذلك النّعيم المقيم الّذى يُكْرِم الله تعالى به في الجنّة عباده الصّالحين خير، أم شجرة الزّقّوم الّتى خبثت طبيعةً وشكلاً وثمرا! إنّ الله تعالى جعل شجرة الزّقّوم امتحاناً وابتلاءً للمشركين الّذين استنكروا أن تنبت شجرةٌ في النّار، اعتقاداً منهم أنّ هذه الشّجرة من جنس الشّجر الذى تأكله النّار. إنّها شجرةٌ تضرب جذورها في أعماق الجحيم، وتَخْرُج ساقها من أصل النّار، وتنتشر أغصانها في أرجائها، ويشبه ثمرها في القبح رءوس الشّياطين الّتى استقرّ في النّفوس أنّها قبيحة الشّكل كأفعالها فتنفر منها.

إنّ أصحاب النّار يأكلون من شجرة الزّقّوم، فيملأون منها البطون. وحينما يعطشون ويشتدّ ظمؤهم، وهم دائماً يفعلون ذلك، يشربون من عين ماء غاية في الحرارة والغليان، ويكون ذلك النّوع من الشّراب غير الهنيء مخالطاً لذلك الطّعام غير المريء. ثمّ إنّهم يعودون إلى النّار بعد شرب الحميم.

أمّا الأسباب الّتى أفضت بالمشركين إلى ذلك المصير السّيّيء فلأنّهم عطّلوا عقولهم الّتى امتنّ الله تعالى بها عليهم فاقتفوا آثار آبائهم الضّالّين، وتنافسوا في الحصول على قصب السّبق في الضّلالة والسّفاهة، ولم يعتبروا بما حلّ بالسّابقين من الهلاك، وكذّبوا رسل الله تعالى الّذين أنذروهم بين يدي عذاب يوم القيامة الشّديد.

فانظر يا محمّد بعين عقلك وقلبك وبصيرتك، وانظر أيّها الإنسان كيف كان عاقبة أولئك الضّالّين في نار الجحيم، وقارن بين عذابهم الأليم، وبين الجنّة الّتى عرضها السّماوات والأرض، والّتى أعدّها الله تعالى للمتّقين.

قارن أيّها الإنسان بين المصيرين المتباينين، واختر لنفسك، مستعيناً بالله تعالى متوكّلاً عليه، طريق الصّالحين، الّذين أتوا الله تعالى بقلبٍ سليم، والّذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، بإذن الله تعالى، العليّ العظيم.

# (٤)

# «نَصَرَ الله تعالى نوحاً وإبراهيم وموسى وهارون وإلياس ولوطاً عليهم السّلام، ونَجّى يونس عليه السّلام من الغمّ»

## الآيات (٧٥-١٤٨)

أصرّ كفّار مكّة على كفرهم وصدّهم عن سبيل الله تعالى رغم التّهديد لهم والوعيد، ممّا زاد المصطفى ﷺ حزناً وأسى. وقد تحوّل السّياق إلى الحديث عن كوكبةٍ من الرّسل الكرام نصرهم الحقّ جلّ وعلا وكبت عدوّهم. وفي الحديث عن نصر المرسلين تسليةٌ للنّبيّ ﷺ والمؤمنين. وفي الحديث عن هلاك الكافرين مزيد تهديدٍ لكفّار مكّة ووعيد.

وأوّل الرّسل الكرام الّذين تحدّث عنهم السّياق نوحٌ عليه السّلام. ويصحّ أن تكون الحكمة من الابتداء بالحديث عنه عليه السّلام أنّه أوّل رسل الله تعالى. يقرّر السّياق أنّ نوحاً عليه السّلام، الّذى لبث يدعو قومه إلى الله تعالى ألف سنةٍ إلاّ خمسين عاماً، نادى ربّه عزّ وجلّ أن ينصره على قومه الظّالمين فكان جلّ وعلا نعم المجيب له عليه السّلام. ونجّى الله تعالى نوحاً عليه السّلام من الكرب العظيم الّذى كان فيه من كُفْرِ قومه وملابسات الطّوفان الّذى أغرق الكافرين خارج السّفينة. وجعل عزّ وجلّ ذرّيّة نوح عليه السّلام والمؤمنين معه في السّفينة هم الباقين بعد الطّوفان. وترك جلّ وعلا على نوحٍ عليه السّلام الثّناء الحسن والذّكر الجميل لدى أتباع النّبيّين والمرسلين اللاّحقين. وسلامٌ وأمَنَةٌ وطمأنينةٌ من الله تعالى لنوحٍ عليه السّلام أن يذكره أحدٌ من جميع الطّوائف بسوء. وكما جزى الله تعالى نوحاً عليه السّلام الجزاء الحسن يجزى جلّ وعلا المحسنين في كلّ زمانٍ ومكان. لقد كان عليه

السّلام من عباد الله تعالى المؤمنين. ثمّ أغرق عزّ وجلّ الكافرين الآخرين الّذين كانوا خارج السّفينة.

ثمّ يتحوّل السّياق إلى الحديث عن إبراهيم وابنيه إسماعيل وإسحاق عليهم الصّلاة والسّلام. ويصحّ أن تكون الحكمة من تحوّل الحديث إلى إبراهيم عليه السّلام لأنّه أبو جميع الأنبياء بعده، فمحمّد بن عبد الله ﷺ، خاتم النّبيّين وأشرف المرسلين، النّبيّ الوحيد من ذرّيّة إسماعيل عليه السّلام. وكلّ أنبياء بني إسرائيل من ذرّيّة إسحاق عليه السّلام عن طريق ابنه يعقوب عليه السّلام، الّذي له اسمٌ آخر، هو إسرائيل.

يقرّر السّياق أنّ إبراهيم عليه السّلام من شيعة نوحٍ عليه السّلام وعلى ملّته ومنهاجه، حين جاء ربّه عزّ وجلّ بقلبٍ سليم من الشّرك، وحين قال لأبيه وقومه المشركين: ماذا تعبدون، وفي أسلوب الإنكار سأل: أكذباً صريحاً آلهةً مزعومة غير الله تعالى تريدون! فما ظنّكم بربّكم أن يفعل بكم حينما تلقونه عزّ وجلّ مشركين به في العبادة سواه!.

ولمّا كان القوم يقدّسون النّجوم، وكان عليه السّلام يريد أن يبطش بالأصنام بعد أن يذهب القوم إلى عيدهم، فإنّهم حينما طلبوا منه أن يذهب معهم إلى عيدهم نظر في النّجوم متفكّراً فتوهّم القوم تقديسه للنجوم مثلهم. وكما فهم القوم من فعل إبراهيم عليه السّلام معنىً غير الّذي يقصده عليه السّلام، فهم القوم من قوله عليه السّلام لهم إنّه سقيم معنىً غير الّذي يقصده عليه السّلام. لقد فهموا أنّه عليه السّلام عليلٌ بسبب طلوع نجمٍ من النّجوم، وكان عليه السّلام عليل القلب فَرْطَ حزنٍ منه عليه السّلام بسبب عبادة القوم الأصنام، وصرف العبادة عن الله تعالى الّذي يستحقّها وحده دون سواه.

تولّى القوم عن إبراهيم عليه السّلام مدبرين إلى عيدهم. ومال عليه السّلام إلى الآلهة المزعومة فقال لها على سبيل الاستهزاء: ألا تباركون الطّعام الّذي وضعه القوم بالأكل منه! واستمرّ عليه السّلام في الاستهزاء بالأصنام الّتي لاذت بالصّمت. فما كان عليه السّلام إلاّ أن مال عليها بفأسه يضربها الواحد تلو الآخر

حتّى لم يبق سوى كبير الأصنام الّذى علّق في عنقه الفأس وكأنه هو الّذى كسّر الأصنام ثأراً منها لأنّها جعلت النّاس يشركونها مع الصّنم الأكبر في العبادة!.

علم القوم بما حلّ بالأصنام من دمار، فأقبلوا إلى إبراهيم عليه السّلام مسرعين يكادون يطيرون. قال لهم منكراً: أتعبدون ما تنحتون من أصنام وأوثان. وتتركون عبادة الله تعالى الّذى خلقكم ونَحْتَكم ومنحوتكم!.

قال المشركون ابنوا لإبراهيم بنياناً في هيئة التّنّور أو الفرن فألقوه في النّار المتأجّجة والجمر الّذى يعلو بعضه بعضا.

أراد القوم بإبراهيم عليه السّلام الهلاك فأنجاه الله تعالى من النّار وجعلهم الأسفلين المغلوبين المقهورين بالحجّة والبرهان.

ولمّا أعرض القوم إعراضاً كلّيّاً عن إبراهيم عليه السّلام قال إنّى ذاهبٌ إلى ربّى عزّ وجلّ الّذى سوف يثبّتنى بإذنه على المحجّة البيضاء، وإنىّ مهاجرٌ من بلدى في العراق إلى الأرض المقدّسة في الشّام، كما سأل الله تعالى أن يهبه فضلاً منه الذّرّيّة الصّالحة.

بشّر الحقّ جلّ وعلا إبراهيم عليه السّلام بغلامٍ حليم، هو إسماعيل عليه السّلام من زوجه هاجَر. فلمّا بلغ إسماعيل مع إبراهيم القدرة على السّعي والعمل، وتعلّق قلب إبراهيم تعلّقاً بليغاً بابنه، قال إبراهيم عليه السّلام لإسماعيل عليه السّلام، في أسلوب يفيض رضاً بقضاء الله تعالى: ﴿يا بنيّ إنىّ أرى في المنام أنىّ أذبحك فانظر ما ترى﴾ وكان جواب الطّفل إسماعيل يفيض هو الآخر رضاً بقضاء الله تعالى: ﴿قال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدنى إن شاء الله من الصّابرين﴾.

لقد استسلم الأب والابن لقضاء الله تعالى وأكبّ إبراهيم عليه السّلام ولده إسماعيل عليه السّلام على وجهه وجبهته كيلا يرى تألّم وجهه لحظة الذّبح وأمرّ السّكين على رقبة الابن فتعطّلت السّكين عن العمل كما تعطّلت النّار عن العمل بإرادة الله تعالى. وقع العمل من الحقّ جلّ وعلا موقع الرّضا وبيّن الحقّ جلّ وعلا لإبراهيم عليه السّلام رضاه عنه وناداه أن يا إبراهيم قد صدّقت الرّؤيا بإضجاع

ولدك للذّبح، وها نحن أولاء نجزيك على إحسانك فلا تعمل السّكين ويقع عملك موقع الرّضا منّا. وكما أثبنا إبراهيم على إحسانه نثيب المحسنين في كلّ زمان ومكان. إنّ هذا الّذى فعله إبراهيم عليه السّلام لهو الاختبار العظيم من الله تعالى والابتلاء الكبير. وفدى الحقّ عزّ وجلّ إسماعيل عليه السّلام بكبشٍ معدٍّ للذّبح عظيم، ذبحه إبراهيم عليه السّلام في المنحر بمنى بدلاً من ابنه الكبير البكر إسماعيل عليه السّلام.

وترك الله تعالى على إبراهيم ثناءً عاطراً في الأمم التّالية من أتباع النّبيّين والمرسلين، عليهم جميعاً صلوات ربّ العالمين وسلامه. سلامٌ من الله تعالى وطمأنينة على إبراهيم. وكما جزى الله تعالى إبراهيم عليه السّلام يجزى المحسنين. إنّه عليه السّلام من عباد الله تعالى المؤمنين.

وبعد الانتهاء من الحديث عن إسماعيل عليه السّلام يتحوّل الحديث إلى إسحاق عليه السّلام. لقد بشّر الحقّ جلّ وعلا إبراهيم عليه السّلام بإسحاق من زوجته سارّة، نبيّاً من الصّالحين الّذين بلغوا القمّة في الصّلاح. وبارك الله تعالى على إبراهيم عليه السّلام أبى الأنبياء، وعلى إسحاق عليه السّلام، فكلّ أنبياء بنى إسرائيل من ذرّيته عليه السّلام.

ومن ذرّيّة إبراهيم وإسحاق عليهما السّلام محسنٌ لنفسه بالإيمان والتّقوى وظالمٌ لنفسه بيّن الظّلم بكفره وعمل السّيّئات وإتيان المنكرات.

وبعد حديث آخر الآيات الكريمات عن الرّسولين الكريمين، إبراهيم وإسحاق عليهما السّلام، يتحوّل السّياق إلى الحديث عن الرّسولين الكريمين موسى وهارون عليهما السّلام، وهما من ذرّيّة إسحاق عليه السّلام. وما أكثر أوجه الشّبه بين ملابسات الدّعوتين، المحمّدية والموسويّة، على صاحبيهما أفضل الصّلاة وأتمّ التسّليم. لقد منّ الله تعالى على موسى وهارون عليهما السّلام بنعمة النّبوّة، ونجّاهما وقومهما من الكرب العظيم وأذى فرعون وقومه الشّديد، ونصرهما الله تعالى وقومهما على فرعون وملئه فكانوا هم الغالبين. وآتاهما التّوراة، الكتاب السّماويّ الواضح الجلّى البليغ البيان. وهداهما طريق الإسلام المستقيم. وترك جلّ

وعلا عليهما الثّناء الحسن في الأمم المتأخّرة من أتباع المرسلين والنّبيّين. وسلامٌ من الله تعالى وأمنٌ وطمأنينة على موسى وهارون. إنّ الله تعالى كما كافأ موسى وهارون على إحسانهما يكافىء المحسنين في كلّ زمانٍ ومكان. إنّهما من عباد الله تعالى المؤمنين المحسنين.

ثمّ يتحوّل السّياق إلى الحديث عن إلياس عليه السّلام الّذى أُرسل فيما يقال إلى أهل بعلبك غربيّ دمشق. وفي هذه المدينة آثارٌ باقية. فإذا كان عليه السّلام قد أُرْسل إلى أهل تلك المدينة ففى آثارها الباقية عبرةٌ وعظةٌ لأهل مكّة، حينما يمرّون في رحلتهم الصّيفيّة إلى الشّام، كما يمرّون على آثار قوم لوطٍ في الأردنّ، وعلى آثار ثمود قوم صالحٍ عليه السّلام بوادى القرى في شماليّ الجزيرة العربيّة.

إنّ إلياس عليه السّلام لمن المرسلين. اذكر حين قال لقومه ألا تتّقون عذاب الله تعالى بإفراده بالعبادة. أتعبدون صنماً وتتركون الله تعالى أحسن الخالقين. الله تعالى الّذى ربّاكم بنعمه وربّى آباءكم الأوّلين. فكذّبوه عليه السّلام فهم محضرون في عذاب النّار يوم القيامة. إلاّ عباد الله تعالى المصطفين الأخيار الّذين أخلصوا العبادة لله تعالى فهم في جنّات النّعيم. وترك جلّ وعلا على إلياس ذكراً حسناً في الآخرين من الأمم من أتباع النّبيّين والمرسلين. وسلامٌ من الله تعالى عليه وأمنٌ وطمأنينة. وكما أحسن الله تعالى جزاءه يُحْسِنُ جلّ وعلا جزاء المحسنين في كلّ زمانٍ ومكان. إنّه عليه الصّلاة والسّلام من عباد الله تعالى المؤمنين المحسنين.

ثمّ يتحوّل السّياق إلى الحديث عن قوم لوطٍ عليه السّلام الّذين قلب الله تعالى قراهم، رأساً على عقب، والّذين نصّ السّياقُ على وجوب أخذ كفّار مكّة العبرة وهم يمرّون على اثار قوم لوطٍ مصبحين وممسين.

إنّ لوطاً عليه السّلام لمن المرسلين. اذكر حين نجّاه الله تعالى وأهله أجمعين من الهلاك إلاّ امرأته الّتى كانت من الباقين في العذاب. ثمّ دمّر الله تعالى الآخرين. وإنّ كفّار مكّة ليمرّون على قرى قوم لوطٍ صباحاً ومساءً فعليهم أن يتّعظوا ويؤمنوا وإلاّ كان مصيرهم مماثلاً.

وإنّه بالمقارنة بين آثار قوم إلياس عليه السّلام وآثار قوم لوطٍ عليه السّلام

يتبيّن أنّ آثار قوم لوطٍ عليه السّلام هي الأكبر والأبلغ، ولعلّ هذا السّبب هو الحكمة من تأخير قوم لوطٍ عليه السّلام فى الذّكر.

ثمّ يتحدّث السّياق عن آخر هذه الكوكبة من المصطفين الأخيار. إنّه يونس عليه السّلام. ولمّا كان قوم يونس عليه السّلام هم الأمّة الوحيدة الّتى قَبِل الله تعالى توبتها النّصوح حينما رأت العذاب، فلعلّ هذا السّبب هو الحكمة في كون يونس عليه السّلام آخر الكوكبة من المرسلين الّذين تحدّث عنهم السّياق.

إنّ يونس عليه السّلام لمن المرسلين. اذكر حين فرّ بدون إذن ربّه من قومه المصرّين على الكفر وهرب إلى الفلك المثقَل المملوء.

لقد هاج البحر وماج، وكادتْ تغرق السّفينة بسبب حملها الثّقيل، وكان ينبغى التّخفيف من ذلك الحمل، فَعُمِلَت القرعة من أجل اختيار من يُرْمَى به من الرّكّاب في البحر. وقعت القرعة على يونس عليه السّلام الّذى أُلْقِي به في عُرْض البحر اللّجيّ، فابتلعه الحوت وهو آتٍ بما يلام عليه، لتركه المدينة بدون إذن ربّه جلّ وعلا له. فلولا أنّه عليه السّلام كان من المسبّحين لله تعالى المعترفين بظلمهم أنفسهم لكان بطن الحوت قبراً ليونس عليه السّلام إلى يوم القيامة.

بأمر الله تعالى ألقى الحوت يونس عليه السّلام بالسّاحل حيث لا بناء ولا نبات، وهو عليل الجسم، كالطّفل الحديث الولادة، الشّديد الحاجة للغذاء والكساء. أنبت الله تعالى على يونس شجرة قرعٍ يتّسم ورقها بالكِبر والغزارة والنعومة، ويتّسم ثمرها بأنّه يصحّ أن يؤكل لُبّه وقِشْره، نيئاً ومطبوخاً.

وبعد أن عافى الحقّ وعلا يونس عليه السّلام أرسله عزّ وجلّ إلى مائة ألف شخص، بل يزيدون. فآمنوا بالله تعالى وصدّقوا يونس عليه السّلام فمتّعهم الله تعالى بحياتهم حتّى مماتهم.

ويصحّ أن يكون هؤلاء القوم قوم يونس عليه السّلام الأوّلين، وقد يكونون قوماً آخرين. إنّهم آمنوا فقبل الله تعالى توبتهم وأثابهم.

إنّ على كفّار مكّة أن يتّعظوا بما حلّ بالسّابقين المكذّبين، وأن يؤمنوا كي يمتّعهم الله تعالى كما متع عزّ وجلّ قوم يونس عليه السّلام حتّى حين.

# (٥)

# « يُصرّ كفّار مكّة على كفرهم وزعمهم أنّ الملائكة بنات الله، فأعْرِض يا محمّد عن الكافرين وسَبِّحْ بحمد ربّك»

## الآيات (١٤٩-١٨٢)

بيّنت السّورة الكريمة في أوّلها حقيقة الملائكة وطبيعتهم. إنّهم يعبدون الله تعالى صفوفا، ويفعلون ما يؤمرون به، ويذكرون الله تعالى ذكراً كثيراً. وإنّ السّورة الكريمة في آخرها تعود إلى ما ابتدأت به من حديثٍ عن الملائكة الّذين أصرّ كافرو مكّة ومن شاكلهم على الزّعم أنّهم بنات الله تعالى وعبدوهم، فعلى محمّد ﷺ أن يُعْرِض عن هؤلاء المشركين حتّى يقضي الله تعالى فيهم بحكمه، وأن يسبّح بحمد ربّه العظيم.

يأمر السّياق محمّداً ﷺ أن يسأل كفّار مكّة في إنكار: ألربّك يا محمّد البنات بزعمهم أنّ الملائكة بنات الله ولهم البنون الّذين يؤثرونهم على البنات! أم أنّ كفّار مكّة كانوا شهوداً حينما خلق الله تعالى الملائكة إناثاً فهم يُدْلون بشهادةٍ أحاطوا علماً بقضيّتها! ألا إنّ من كذب كفّار مكّة الشّنيع أنّهم يقولون: صَدَرَ عن الله تعالى الولد في هيئة الملائكة الإناث وإنّهم لكاذبون. أم أنّ الله تعالى اختار لنفسه البنات اللّاتى لا يختارهنّ كفار مكّة لأنفسهم وآثرهنّ على البنين! ماذا دهاكم يا كفّار مكّة وما الّذى جرى لكم. كيف تصدرون هذا الحكم الجائر الّذى يدلّ على سفهكم وعلى تعطيلكم عقولكم. هلاّ تذكّرتم خطأكم وارعويتم عن خطلكم وتبتم توبةً نصوحاً وأفردتم الله تعالى بالعبادة. أم أنّ لكم على شرككم

حجّـةً بيّنةً وبرهاناً ساطعاً! فـأتوا بهذا السّلطان المبين في كتـاب موحىً به من ربّ العالمين، إن كنتم صادقين بأنّ عندكم دليلاً على زعمكم، وهيهات.

وجعل مشركو مكّة بينه عزّ وجلّ وبين الملائكة نسباً بزعمهم أنّ الملائكة بنات الله. ولقد علمت الملائكة أنّ هؤلاء الكاذبين ليحضـرون يوم القيامة إلى نار جهنّم ومعذّبون فيها.

تنزيهاً لله تعالى عمّا ألحـق هؤلاء الكاذبون بالذّات العليّة ممّا لا يليق بجلالها وعظمتها. إلاّ عـباد الله تعالى المخلصين العبادة لله تعالى المصطـفين الأخيار فإنّهم في جنّات النّعيم.

فـإنّكم أيّها المشـركون ومـا تعبـدون من دون الله تعـالى، ما أنتم بضـالّين بمعبـودكم الزّائف من أحدٍ إلاّ من سـبق في علم الله تعالى أنّه من الضّـالين الّذين سوف يدخلون جهنّم ويصلون نارها.

وما منّا نحن الملائكة إلاّ وله مقـامٌ معلومٌ لا يتجاوزه ويعبد الله تعـالى فيه. وإنّا لنحن الصّافّون نفوسنا لعبادة الله تعالى. وإنّا لنحن المنزّهون لله تعالى عن كلّ ما ألحقه الظّالمون به ممّا لا يليق بجلاله وعظمته.

وإنّ كفّار مكّة كانوا قبل بعثة محمّد ﷺ ليقولون: لو أنّ عندنا كتاباً سماوياً يذكّرنا بأمـر الله تعالى كالتّـوراة والإنجيل لكنّا عـباد الله تعالى المصطفين الأخـيار الّذين أخلصوا العبـادة لله تعالى. فلمّا جاءهم القرآن الـكريم الموحى به إلى عبدنا محمّدٍ ﷺ كفروا به فسوف يعلمون عاقبة كفرهم بالقرآن الكريم وتكذيبهم للرّسول العظيم ﷺ.

ثمّ يتحـوّل السّياق إلى التّـسلية الصّريحـة لمحمّد بن عبـد الله ﷺ: ولقد سبقت كلمتنا في أمّ الكتاب لعبادنا المرسلين، وأنت يا محمّد خاتم النّبيّين وأشرف المرسلين. إنّهم لهم المنصـورون على الكافرين بالحجّـة والبرهان وإنّ جندنا المؤمنين وحزب الله تعـالى الصّالحين المجـاهدين، لهم الغالبـون أعداء الله تعالـى بالسّيف والسّنان، البيان واللّسان، فأعرض يا محمّد عن الكافرين إلى أن يقضي الله تعالى بحكمه عليهم، ويوحي إليك بأمره فيهم. وأبصرهم وانْظُرْهُمْ وارْقُبْ ما يفعل الله

تعالى بهم فسوف يرون ذلك الّذى سوف يفعله الله تعالى بهم.

أفبعذابنا يستعجل هؤلاء المشركون المستهزئون السّفهاء الّذين لا يؤمنون بالآخرة. فإذا نزل العذاب بهم ووقع عليهم فبئس صباح ذلك اليوم الذى يقع العذاب فيه على هؤلاء المنذَرين المعاندين الصّادّين عن سبيلنا.

وأعرض عنهم يا محمّد حتى حين. وانْظُرْهُمْ فسوف يرون ذلك العذاب الّذى تراه وقع عليهم. ولا يخفى ما في التكرار من مزيد التّهديد والوعيد.

تنزيهاً لربّك يا محمّد، عمّا ألحق الظّالمون به، ربّ العزّة والغلبة والجلال والكبرياء، وألصقه به الكاذبون ممّا لا يليق بجلاله وعظمته. وسلامٌ من الله تعالى على المرسلين الّذين قصصنا عليك والّذين لم نقصص. والحمد كلّه والثّناء جميعه لله تعالى المستحقّ أن يعبد وحده دون سواه، ربّ العالمين، الثّقلين الجنّ والإنس، وربّ كلّ شيء وحيّ، الّذى لا تُعَدّ نعمه ولا تُحْصَى آلاؤه، سبحانه وتعالى، له الحمد في الأولى والآخرة، وإليه المصير، يوم لا ينفع مالٌ ولا بنون، إلاّ من أتى الله بقلبٍ سليم.

# التّفسير

# (١)

# « الله تعالى الخالق، زيّن السّماء الدّنيا بالكواكب، وحفظها من الشّياطين بالشُّهُب»

# الآيات (١ - ١٠)

وَالصَّٰٓفَّٰتِ صَفًّا ﴿١﴾ فَالزَّٰجِرَٰتِ زَجْرًا ﴿٢﴾ فَالتَّٰلِيَٰتِ ذِكْرًا ﴿٣﴾ إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ ﴿٤﴾ رَّبُّ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَٰرِقِ ﴿٥﴾

والصّافّات صفّـا : الملائكة تصفّ نفوسها في العبادة أو أجنحتها في الهواء تنتظر مـا تؤمر به(١) روى الإمـام مسلم عن حـذيفة قـال: قال رسـول الله ﷺ: فُضِّلنا على النّاس بثـلاث، جُعلت صفوفنا كصـفوف الملائكة، وجُعلَتْ لنا الأرض كلُّها مسجداً، وجُعلَتْ تُربتُها لنَا طهوراً إذا لم نجد الماء(٢) وروى الإمام مسلم أيضاً عن جابر بن سَمُرَة قال: قال رسـول الله ﷺ: ألا تَصُفّون كما تَصُفُّ الملائكة عند ربّها؟ فـقلنا يا رسول الله وكيف تَصُفّ الملائكة عند ربّهـا؟ قال: يُتمّون الصّـفوف الأُول، ويتراصُّون في الصّف(٣).

فالزّاجرات زجرا : الملائكة تزجر السّحاب أي تسوقه(٤).

فالتّاليات ذكـرا : فالقارئات كتابا(٥) قال السّدّي: الملائكة يجـيئون بالكتاب والقرآن من عند الله إلى النّاس. وهذه الآية كـقوله تعالى(٦) : ﴿فالملقـيات ذكرا.

---

(١) الجلالين وانظر تفسير الطّبرى ٢٣/ ٢٢ وتفسير ابن كثير ٧/ ٣.

(٢) صحيح مسلم ٥/ ٤ وتفسير ابن كثير ٧/ ٣و٣٩.

(٣) صحيح مسلم ٤/ ١٥٣ وتفسير ابن كثير ٧/ ٣.

(٤) تفسير الطّبرى ٢٣/ ٢٣ والجلالين.

(٥) تفسير الطّبرى ٢٣/ ٢٣ والجلالين.

(٦) سورة المرسلات ٦و٧.

عذراً أو نذرا(١)﴾.

ربّ السّماوات والأرض وما بينهما : ربّ بدل من واحد مرفوع(٢).

وربّ المشارق : أي والمغارب للشّمس(٣) واكتفى بذكر المشارق عن المغارب لدلالتها عليه(٤) قال السّدّى : المشارق ستّون وثلاثمائة مشرق. والمغارب مثلها عدد أيّام السّنة(٥).

يقسم الحقّ جلّ وعلا بالملائكة الّتى تَصُفّ نفوسها في العبادة، أو تصفّ أجنحتها في الهواء تنتظر ما يأمرها الحقّ جلّ وعلا به، وبالملائكة الّتى تزجر السّحاب زجراً عنيفاً، أو تسوقه سوقاً لطيفا، وبالملائكة الّتى تتلو كتاب الله تعالى الموحى به إلى أحد المُصْطَفْينَ من عباده، والّتى تؤتمن على حمله وتبليغه. وإنّ من حقّ المولى عزّ وجلّ أن يُقْسم بما شاء من خلقه. ثمّ يأتى المقسَم عليه.

إنّ إلهكم أيّها النّاس المستحقّ أن يفرد بالعبادة هو الله تعالى الواحد الأحد، الفرد الصّمد، الّذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد، ربّ مشارق الشّمس ومغاربها عدد أيّام السّنة.

---

(١) تفسير ابن كثير ٧/ ٤.

(٢) الجدول في إعراب القرآن وصرفه ١١/ ٣٢.

(٣) الجلالين وانظر تفسير الطّبرى ٢٣/ ٢٣.

(٤) تفسير ابن كثير ٧/ ٤.

(٥) تفسير الطّبرى ٢٣/ ٢٤.

إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ ﴿٦﴾ وَحِفْظًا
مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ ﴿٧﴾ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَى وَيُقْذَفُونَ
مِن كُلِّ جَانِبٍ ﴿٨﴾ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴿٩﴾ إِلَّا مَنْ خَطِفَ
الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴿١٠﴾

إنّا زيّنّا السّماء الدّنيا : الّتى تليكم أيّها النّاس، وهي الدّنيا إليكم(١).

بزينةٍ الكواكب : الكواكب بدل من زينة(٢) والمفرد كوكب. وهو جرم سماوي يدور حول الشّمس ويستضيء بضوئها. وأشهر الكواكب مرتّبةً على حسب قربها من الشّمس : عُطارِد، الزُّهَرة، الأرض، المرّيخ، المشترى، زُحل، يورانس، نبتون، بلوتون(٣).

وحفظاً : مفعولٌ مطلق لفعلٍ محذوف تقديره حفظناها(٤).

من كلّ شيطان : الشّيطان فيعال مِنْ شَطَن إذا بَعُد عن الخير(٥).

مارد : عاتٍ خبيث(٦) خارج عن الطّاعة(٧).

---

(١) تفسير الطّبرى ٢٣/ ٢٤.

(٢) الجدول في إعراب القرآن وصرفه ١١/ ٣٣ وتفسير الطّبرى ٢٣/ ٢٤ وتفسير ابن كثير ٧/ ٤.

(٣) المعجم الوسيط : «كوكب».

(٤) الجدول في إعراب القرآن وصرفه ١١/ ٣٣ وتفسير الطّبرى ٢٣/ ٢٤.

(٥) انظر لسان العرب : «شطن».

(٦) تفسير الطّبرى ٢٣/ ٢٤.

(٧) الجلالين.

لا يسّمعون إلى الملأ الأعلى : لا يتسمّعون، ثمّ أدغموا التّاء في السّين فشدّدوها[١] وعدّي بالى لتضمينه معنى يصغون[٢] والملأ : الخلق المملوء جمالاً، والجماعة الّتى تملأ العين رُواءً ومنظرا، والنّفوس بهاءً وجلالا[٣] والمراد جماعة الملائكة الّتى هم أعلى ممّن هم دونهم[٤] أي ملائكة السّماء[٥].

ويقذفون من كلّ جانب : أي تقذف الشّياطين بالشّهب من كلّ آفاق السّماء وكلّ جانبٍ من جوانبها[٦].

دحوراً : مصدر من قولك : دحرته أدحره دحراً ودحورا. والدّحر الدّفع والإبعاد[٧] مفعول لأجله[٨] أي رجماً يدحرون به ويزجرون ويمنعون من الوصول إلى ذلك[٩].

واصب : دائمٌ[١٠] وموجعٌ ومستمرٌ[١١].

إلاّ من خطف الخطفة: الخطف والاختطاف الاختلاس بالسّرعة. يقال خَطِفَ

---

(١) تفسير الطّبرى ٢٣/ ٢٤.

(٢) انظر الجدول في إعراب القرآن وصرفه ١١/ ٣٣ والجلالين.

(٣) مفردات الرّاغب الأصفهاني : «ملأ» ٢/ ٦١٢.

(٤) تفسير الطّبرى ٢٣/ ٢٧.

(٥) الجلالين.

(٦) انظر الجلالين وتفسير الطّبرى ٢٣/ ٢٧ وتفسير ابن كثير ٧/ ٤.

(٧) تفسير الطّبرى ٢٣/ ٢٧.

(٨) انظر الجدول في إعراب القرآن وصرفه ١١/ ٣٣ والجلالين.

(٩) تفسير ابن كثير ٧/ ٤.

(١٠) تفسير الطّبرى ٢٣/ ٢٧.

(١١) تفسير ابن كثير ٧/ ٤ وتفسير الطّبرى ٢٣/ ٢٧.

يَخْطَف وخَطَف يَخْطف، وقرىء بهما جميعاً[1] يقول إلاّ من استرق السّمع منهم[2]. واختطف الكلمة يسمعها من السّماء[3] والاستثناء من ضمير يسمعون. أي لا يسمع إلاّ الشّيطان الّذى سمع الكلمةمن الملائكة فأخذها بسرعة[4] والخطفة مصدر مرّة من الثّلاثي خَطِفَ باب فَرِحَ، وزنه فَعْلَة بفتح فسكون[5].

فأتبعه : فلحقه[6].

شهاب : كوكبٌ مضيء[7] والشّهاب الشّعلة السّاطعة من النّار الموقدة، ومن العارض في الجوّ نحو : ﴿فأتبعه شهابٌ ثاقب﴾[8].

ثاقب : يثقب بنوره وإصابته ما يقع عليه[9] ويبين أثره في الشّيطان المارد إمّا بإخباله وإفساده أو بإحراقه[10].

إنّ الله سبحانه وتعالى الّذى خلق السّماوات والأرض، زيّن السّماء الدّنيا إلينا، القريبة منّا، بزينة الكواكب غير المولّدة للطّاقة، والّتى تعكس ضوء الشمس المنبثق منها نوراً، وبذلك تقوم الكواكب بدور المرآة العاكسة. إنّ القمر مثلاً، يعكس ضوء الشّمس نورا. وكما كانت الكواكب زينةً للسّماء، كانت مصدر نورٍ للأرض.

وكما زيّن الله تعالى السّماء الدّنيا بالكواكب المنيرة حفظها عزّ وجلّ حفظاً،

---

(١) مفردات الرّاغب الأصفهاني : «خطف» ١/ ٢٠٠.

(٢) تفسير الطّبرى ٢٣/ ٢٧.

(٣) تفسير ابن كثير ٧/ ٤.

(٤) الجلالين.

(٥) الجدول في إعراب القرآن وصرفه ١١/ ٣٤.

(٦) مفردات الرّاغب الأصفهاني : «تبع» ١/ ٩٣.

(٧) الجلالين.

(٨) مفردات الرّاغب الأصفهاني : «شهب» ١/ ٣٥٢.

(٩) مفردات الرّاغب الأصفهاني : «ثقب» ١/ ١٠٣.

(١٠) تفسير الطّبرى ١٤/ ١١.